في الأدب الانكليزي

٣ ـ هل من انتحال في الأدب الانكليزي ؟

للسيد جريس القسوس

— ٦ —

من هو طوماس تشاترتن ؟ Chatterton

وُلد هذا الشاعر في برستل ، في ٢٠ نوفبر سنة ١٧٥٢ ، بعد وفاة أبيه بثلاثة أشهر . وكان أبوه كاتباً بسيطاً في كاتدرائية برستل ، يتقاضى منها راتباً زهيداً ؛ فمات ولم يخلف لابنه تراثاً مادياً يُذكر

دخل الشاعر مدرسة كولستُن Colston الابتدائية حيث قضى ثماني سنين متتالية ، نظم في خلالها بعض قصائد ، منها واحدة نظمها سنة ١٧٦٤ بعنوان « وصية الكافر » Apostate Will

ثم عنّ له أن يقصد عمه حارس كنيسة القديسة ماري في « ردكلف » Redcliffe لعله يجد في كنفه طمأنينة وعزاء . كانت تلك الكنيسة على جمال فني بديع ، فتن الشاعر وأذهله ، فعاش بالخيال في العصور التي أبدعت ذلك الفن الرائع . ليس هذا فحسب ، بل عثر في خزانة الكنيسة على مخطوطات أدبية قديمة ، وسجلات دينية تعود في تاريخها إلى العصور الوسطى ، فكان الشاعر الصبي في خياله وشعوره تائهاً بين هذين التراثين الخالدين : التراث الفني البديع ، والأدبي الرائع . فلم يعش في الحقيقة في عصره إلا بالجسد ؛ أما روحه فقد كانت بكليتها في العصور الوسطى

وانزوى تشاترتن لنفسه في تلك البيئة الروحية الهادئة عاكفاً على بحث تلك الآثار الأدبية ومطالعتها . وبقي هذا شأنه لا يعرف من أمره شيء ، حتى سنة ١٧٦٩ حين فاجأ العالم الأدبي بنشر قصيدة « اليانور ويوغا » « Elinoure & Juga » ، في مجلة Town & Country Magazine ولقد نظم تلك القصيدة في حين لم يتجاوز فيه عمره الثانية عشرة ؛ وأطلع عليها رئيس مستشفى « كلستن » ، مدّعياً أنها من آثار شاعر من شعراء القرن الخامس عشر . أما اسم ذلك الشاعر الخيالي فالكاهن طوماس رولى Rowley عاش في مدينة برستل ، في عهد الملك ادوارد الرابع وكان — على ما ادعى تشاترتن — صديقاً لوليم كاننغ

ووليم كاننغ هذا شخصية تاريخية ؛ كان تاجراً مثرياً ، يتعاطى هذه المهنة في برستل — بلد تشاترتن نفسه — ؛ وكان من غواة الأدب وأعوانه . وادعى تشاترتن أن الكاهن رولى كان يؤمّه ليتلو في حضرته أشعاره ، فيلقى منه كل حدب والتفات . وتقوم بطولة كاننغ على الفضل والتقوى ، ومتانة الخلق ، وقوة العزيمة ، والمحافظة على المبدأ ؛ لهذا لما أرغمه الملك ادوارد على تزوج إحدى الغانيات لغاية في نفسه ، رأى كاننغ نجاته في الهرب من وجه ذلك الملك العسوف ؛ فقصد كلية وستبرى Westbury في مقاطعة جلوسترشاير Gloucestershire ، مفضلاً الحياة بجانب الكاهن الشاعر على التقرب من الملك العاتي الجبار

درس تشاترتن هذه الحوادث دَرْس الولوع الفتن ؛ وألمّ بها إلماماً عجيباً ، واختلق قسماً كبيراً منها . ومعظم قصائده تدور حول هذه الحوادث ، الصحيح منها والمختلق . ويتخلل اسم كاننغ كثيراً من أشعاره التي نظمها ، وعزاها الى الشاعر رولى مثل مأساة برستو Bristowe Tragedie ، أوقصيدة The Accounte of W. Canynge's Feast

ادعى تشاترتن أن يراع ذلك الكاهن الخيالي دبجت هذه القصائد وغيرها ؛ وأنه خلّفها في مخطوطات أودعت خزانة كنيسة ردكلف . هذا كل ما يقوله تشاترتن عن رولى : ولم يذكر عنه أكثر من ذلك ، فيعزز بذلك ادعاءه ، ويقوى حجته

وفي سنة ١٧٦٧ ، عين الشاعر كاتباً في بعض دوائر العدل لكنه رغم ذلك كان له متسع كاف من الوقت للمطالعة والانتاج والنشر خاصة في مجلة Felix Farley's Journal

وأشهر ما ظهر له في ذلك الحين قصيدة اسمها « أنشودة إلاّ » The Song of Aella وهي مأساة تمثيلية فيها ابتكار ، وغنائية lyricism ساحرة ، وروعة فنية سامية . « ومأساة برستو » Bristowe Tragedie وهي من أجلّ مآسيه الشعرية القصصية وأروعها موضوعاً وأسلوباً ، وتنتهي بأعدام البطل بودون Badwin

اذ اشتهر منه الملك ادوارد معاندة وعصياناً . وفيها وصف بديع للبطل بودون اذ آثر الموت على معاندة الملك ادوارد والتلطف له والتحبب إليه . وفيها وصف بارع وقيق للوداع الحار بين ذلك البطل وزوجه البار

ومن هذه أيضاً قصة شعرية تمثيلية اسمها « الرهان » Tournament وأخر مثل « جودون » Goddwyn و « أنشودة الجمال » Ode To Beauty و « البرلمان » The Parliament و « معركة هيستنج » The Battle of Hasting و « أغنية للصدقة » Balade of Charitie وغيرها من القطعات المتفرقة ، وهي كلها شبيهة بأشعار كيتس Keats الخالدة ، من حيث جمال الفن وقوة العاطفة ودقة التصوير . وجميع هذه القصائد تؤلف مجلداً كبيراً من الشعر ، جُمِعَ ونُشِر سنة ١٨٠٤ ؛ وتشاترتن كان ينسب أهم ما فيه إلى الشاعر رولى

لهذا بينما كان العالم الأدبي ينهج في خطى پوب pope وجونسن Johnson الأدبية الكلاسيكية ، كان هذا الشاعر الشاب يمهد السبل القوية للابتداعية Romanticism ، ذلك بأنه كان يعود إلى ينابيع قديمة فيستق منها نتاجه الأدبي أو يستوحي منها عبقريته الخالدة ؛ فيعمل بذلك على نشر الميزات التي يختص بها أدب الابتداعية

ولقد وجد شعراء القرن التاسع عشر في أدب تشاترتن وحياته الرومانتيكية مرتعاً خصباً للخيال والروح ، فقد تأثر الشاعر كولردج Coleridge بأدبه إلى حد بعيد ؛ وهذا يظهر جلياً واضحاً في قصيدته المشهورة Christabel . ولكولردج هذا قصيدة بديعة ، اختصها برثاء تشاترتن اسمها Amonody on the Deathof chatterton . وقل مثل ذلك عن كيتس ؛ إذ يستدل من أهدائه قصيدته الخالدة Endymion إلى تشاترتن أنه كان يستوحي عبقريته ، ويستمد نشاطه الأدبي من روح الشاعر الشاب . ليس هذا فحسب ، بل أقر غير هامن الشعراء الابتداعيين بنبوغ تشاترتن ؛ فنكره شلي Shelley مثلاً في قصيدته (أدونيس) Adonais التي رثى بها كيتس في هداد الشعراء الذين قضوا في ميعة الصبا ، ووردزورث Wordsworth لم يشأ إلا أن يقول فيه ، في قصيدته « الانحلال والاستقلال » Resolution & Independence

تلك الكلمات الرائعة ، التي أصبحت مثلاً سائراً بين الشعراء وهي :

« I thought of Chatterton, the marvellous Boy,
The sleepless Soul that Periphed in his Pride. »

ومعنى ذلك :

« لقد فكرت طويلاً في ذلك الصبي العجيب بل في تلك الروح اليقظة التي قضت آن شموخها وعزها »

والشاعر الشهير دانتي روزيتي Dante Rosetti يذكره مع أعاظم شعراء الانكليز في Fine Eng · Poets

ولقد لاقى تشاترتن في خريف سنة ١٧٧٠ من ضنك العيش وسوء الحال ما دفعه مراراً إلى الانتحار ، حتى إنه كتب مرة وصية ينبئ فيها بعزمه الأكيد على الانتحار في أقرب الفرص ، شارحاً الأسباب الحافزة له على التخلص من الحياة ، لكنه عدل عن ذلك لسبب ما ؛ فاستقال من وظيفته ، وقصد لندن حيث قضى نحو تسعة أسابيع ؛ ومن ثم توجه إلى هولبرن Holborne حيث صرف مدة أنعزل في خلالها عن العالم وعاش عيشة تصوف وهدوء عميقين ؛ فتمكن بذلك من استعادة خيالاته ، وتصوراته الروحية الشائقة ؛ فانتعشت روحه واطمأنت نفسه ، ورضي عن حاله تلك بعض الرضى ؛ فسولت له النفس الاستزادة من العيش ، لكنه ما عتم أن اصطدمت الروح والمادة في ميدان نفسه ، فاحتدم النزاع بينهما احتداما ؛ إذ أن فقره المدقع وعدم اقبال الصحف على نشر آثاره ، وشعوره بفضيحة أمره ، جميعها ملأت حياته كآبة وألماً ، وزادت عيشه ضنكا ومضضاً ؛ فاستسلم لليأس والقنوط ، وعاودته فكرة الانتحار ؛ لكنه عزّ عليه الموت في ريعان الشباب ، فقاوم فكرة الموت ، وعقد النية على دراسة الطب مؤملا من وراء ذلك سعادة وغبطة دنيوية داثمة ، فراسل أصدقاءه يطلب المؤازرة ، لكنه باء بالفشل ، فكانت تلك آخر خفقة في سراج حياته ، إذ عاد على أثر ذلك إلى صومعته عازما على الموت المحتم ، فتجرع الزرنيخ ، بعد أن مزق كل ما عثر عليه من آثاره الأدبية غير المنشورة

وهكذا كانت حياته صراعا بين البؤس والهناء ، واليأس والأمل ، والقناعة والطموح ، والموت والحياة ؛ حتى غلب البؤس في النهاية على الهناء ، وانتصر اليأس على الأمل ، فانهار ذلك البنيان الروحي الرخيص تحت كاهل المادة ولما يبلغ